الدعوة إلى السلام
في شعر زهير

دكتور علي محمد علي طلب

عرف عن العرب في الجاهلية أنهم ذوو حروب لاتهدأ وصدام لايفتر ومعارك لاتنقطع ، فكلما غمدت السيوف في قربها عادت لتسل من جديد ، وكلما هدأ أوار الحرب عاد ليثأر من جديد ، وكلما غمدت نيران المعارك عادت لتشتعل من جديد ؛ فهم بينما ينعمون بحياتهم من لهو وقصف إذ يفاجئهم العدو فيخرجون مدججين بالسلاح ليذودوا عن حياضهم ويأمنوا غائلة عدوهم ويردوا كيده إلى نحره ، ويدافعوا عن أرضهم وحريمهم حتى تنتهي الحرب إما بالنصر أو الهزيمة ، فالحرب سجال بينهم ، ومن ثم يفتخر المنتصر بنصره على ملأ الدنيا وسمعها ، ويتيه إعجابا وفخرا ؛ فقد حافظ على على أرضه وحمى أهله وذويه ودافع عن عرضه وحريمه ...

هذه كانت حياتهم ، وكانت العصبية القبلية قائمة على أشدها ؛ فإذا استنصر أحدهم بقومه نصروه — ظالما كان أو مظلوما — ، ومن هنا كانت الحروب تشتعل لأتفه الأسباب دون روية أو تفكير .

كذلك كان للبيئة الصحراوية القاحلة أثر كبير في اصطدام القبائل ببعضها في سبيل الحصول على القوت تتعرض القبائل للهجمات المتتالية من قبائل أخرى ، وتدور المعارك الطاحنة والحروب التي تفني الحرث والنسل ، والتي تقضي على الأخضر واليابس ، ولاطائل منها إلا الهلاك والدمار .

ولكن على الرغم من هذه الطبائع النهمة للدماء . وتلك الهمجية الزائدة كان هناك قوم من الناس جندوا أنفسهم للدعوة إلى السلام ، وبذل الغالي

والرخيص فى سبيل دعمه والحفاظ عليه والقضاء على الفتن والحروب التى لاتنتهى على ثرى الجزيرة العربية ، ونشأ هؤلاء القوم (وهم قلة) على حب السلم وبغض الحرب والقضاء على أى سبب يوصل إليها ، وهم يعلمون علم اليقين أن الحرب لاتبقى ولاتذر ، ولا تترك شيئاً إلا أتت عليه وتركته هشيما تذروه الرياح فتكون شرا مستطيرا ووبالا خطيرا وهلاكا عاجلا وفناء مؤكدا ، وحسبهم أنهم يحاولون الإصلاح مااستطاعوا إلى ذلك سبيلا سواء نجحوا فى مسعاهم أم أخفقوا فى دعوتهم فى هذا المجتمع المضطرب المشتعل بنار العصبية والهمجية وأخلاق الجاهلية الأولى ...

هؤلاء القوم يذكرهم لنا التاريخ العربى بفخر وإعزاز وتمجيد بالغ وتخليد دائم ، وعلى رأس هؤلاء الداعين إلى السلام شاعر السلام (زهير ابن أبى سلمى)(١) ...

نشأ شاعرنا هذا فى بيئة شعرية أثرت فى شعره ، فخرج إلى الوجود صافياً عذبا رائقا ، نشأ فى بيئة خلقية هيأته لقول لون خاص من الشعر ؛ ألا وهو شعر الأخلاق والتسامح ، والعمل على إصلاح ذات البين بين الناس ، وإقرار السلام فى ربوع الجزيرة العربية ... أضف إلى هذه النشأة الخلقية الفاضلة ماكان لأستاذيه العظيمين (بشامة بن الغدير وأوس بن حجر) من أثر عظيم فى غرس هذه السجايا العالية فى نفسه ؛ فقد كان بشامة خاله أو خال أبيه

---

(١) ليس فى العرب سلمى بضم السين غيره ، وأبو سلمى هو ربيعة بن رباح بن قرة بن الحارث بن مازن بن تعلبة بن برد بن لاطم بن مزينة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر وآل أبى سلمى حلفاء فى بنى عبد الله بن غطفان بن سعد بن قيس بن غيلان بن مضر (شرح القصائد العشر للتبريزى ص ٩٩) .

وكان من سادة غطفان ، وكان أوس (زوج أمه) من علية القوم وكان متأثراً بهما إلى حد كبير (١).

كما أننا لا ننسى جانب الدهر وفعله فى نفسية زهير ؛ فلقد شهد حوادث الزمان وتقلب الأيام ، وما يجره التشاحن والتفكك من ويلات ونكبات ، ولقد عركته الأيام وصهرته الأحداث ، وشهد بعينيه مصرع البغى والعدوان فآلى على نفسه أن يعمل على إزالة جانب الشر من نفوس الناس بشعره الذى يفوح شذاه فى أرجاء الدنيا حكمة وخلقا وخيراً وجمالا .

وخير شاهد على قولنا هذا تلك المعلقة المشهورة التى قالها زهير بعد الصلح بين عبس وذبيان فى حرب (داحس والغبراء) ، وفيها يمدح الحارث بن عوف وهرم بن سنان لتحملهما ديات القتلى لفض النزاع ، وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير (٢) .

هذه المعلقه الخالدة التى مطلعها :

أمن أم أوفى دمنـــة لم تـكلم   بحـومانة الدراج فالمتثـلم (٣)

فقد ضمت فى ثناياها الوسائل التى استخدمها زهير فى الوصول إلى هدفه السامى وهو إقرار السلام أو محاولة إقرارة بين قومه ، والعمل على إزالة شقة الخلاف بين القبائل المتحاربة .

ونطرح المعلقة على بساط البحث (٤) فنجدها تحدد هذه الطرق والوسائل

---

(١) انظر الأدب العربى وتاريخه الأستاذ محمد هاشم عطية ص ٢٠٣ ط مصطفى الحلبى القاهرة ١٩٣٦ .

(٢) انظر مهذب الأغانى الأستاذ محمد الخضرى ١٠٨/١ ط مصر .

(٣) دمنة الدار : أثرها . حومانة الدراج والمتثلم : موضعان .

(٤) انظر معلقة زهير فى شرح المعلقات للزوزنى ص٧٦ ومابعدها ط =

التى سلكها زهير فى دعوته ، ونرى — بعد أن نطرح المقدمة الغزلية جانباً — أنها ضمت فى ثناياها طرقا أربعة اتبعها زهير فى دعوته إلى السلام :

أولا : مدح الساعين إلى الصلح بين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء ، وهما الحارث بن عوف وهرم بن سنان بأبلغ مدح وأجل وصف حيث يقول :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما ... تبـــذل مابين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على أى حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبساً وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعاً ... بمال ومعروف من الأمر نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن ... بعيدين فيها من عتوق ومأثم
عظيمين فى عليا معد وغـــيرها ... ومن يستبح كنزا من المجد يعظم
فأصبح يجرى فيهم من تلادكم ... مغانم شـــتى من إفال المزنم
تعفى الكلوم بالمئين فأصبحت ... ينجمها من ليس فيهـــا بمجرم
ينجمها قـــوم لقوم غرامة ... ولم يهريقوا بينهم ملء محجم(١)

= السعادة القاهرة ١٩٢١ ، القصائد الشعر شرح الخطيب التبريزى ص ١٠٠ وما بعدها ط السلفية بالقاهرة ، جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ص ٦٧ وما بعدها ط الرحمانية القاهرة ١٩٢٦ .

(١) مفردات الأبيات : السعى هنا : العمل لإصلاح ذات البين . تبزل : تفجر . غيظ بن مرة : من ولد عبد الله بن غطفان . البيت : الكعبة الشريفة . جرهم : ولاة البيت قبل قريش ، وأباهم الله لبغيهم وإنتهاكهم حرمة البيت . السحيل : الخيط المفرد . المبرم : المفتول وهما كنايتان عن الرخاء والشدة . منشم : أمراة من خزاعة يضرب بها المثل فى الشؤم . العقوق : قطيعة الرحم . المأثم : الإثم . إفال : جمع أفيل وهو الفصيل . مزنم : معلم . الكلوم : الجروح . المحجم : وعاء يتلقى فيه الحجام الدم عند الفصد .

فى هذه الأبيات يمدح زهير الساعين فى الصلح بين الفريقين المتشاحنين ، وهو بمدحه هذا يمدح من يستحق المدح — وهذا شأنه دائماً — فلقد اشتهر بأنه لم يمدح إلا من يستحق مدحه ، ولقد شهد له بذلك سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث يقول : « كان لا يمدح أحداً إلا بما هو فيه »(١) ، ولقد أضفى زهير فى هذه الأبيات السابقة على هذين الممدوحين صفات النبل والكرم والمروءة والنجدة ، فهما السيدان ، ولا سيد سواهما حيث حقنا الدماء ورأبا بكرمهما صدع الإنشاق والتفرقة والانفكاك ، وأدركا عبسا وذبيان بعد أن تهيأ للفناء والخراب والهلاك ، وهذا سر العظمة فيها ؛ فقد استباحا مالهما فى سبيل هذا الغرض الإنسانى النبيل ، فسال هذا المال فضلا وإحسانا وصونا للأهل وحفاظا للعشيرة على الرغم من أنهما لا ذنب لهما فى هذه الحرب ولا جريرة ، فهما بحق جديران بهذه الصفات التى ذكرها زهير وهذا المدح الذى توج به هامتها ، ومن ثم فقد عرض للناس صورة من صور الكرم النادر ليقتدى الناس بهما فى كل فعالهما ، فيخرج من بين الأشرار أناس سمحاء كرماء يدافعون من الحق ويعملون من أجل الخير والسلام ، وسيكون جزاء العاملين فى كل النفوس إكبارا وإجلالا وتعظيما وإحتراما .

ثانياً : ذم الحرب ووضعها بأفظع وصف ، وذكر ماتجره من خراب ودمار وقضاء على الضرع والنسل الأخضر واليابس ... ها هو ذا يتوجه إلى الأحلاف الذين تكتلوا وأشعلوها حربا ضروسا لا هوادة فيها ، وأضرموا نار الحرب فأحرقتهم فى أتونها ، ودمرتهم بنارها ووقودها ؛ فيخاطب هؤلاء القوم برسالة قوية فيقول :

فمن مبلغ والأحلاف عنى رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم

---

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٤٤ ط دار التراث العربى للطباعة القاهرة ١٩٧٧ :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ... ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع كتاب فيدخر ... ليوم الحساب أو يعجل فينقم
وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا ضريتموها فتضرم
فتعركم عرك الرحى بثفالها ... وتلقح كشافا ثم تحمل فتتئم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم ... كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم
فتغلل لكم مالا تغل لأهلها ... قرى بالعراق من قفيز ودرهم(١)

ما أشد هذه الحرب وما أعظم ويلاتها ونكباتها، كما وصفها لنا هذا الرجل المجرب المحنك الذى صهرته الأحداث وعركته الحياة وعلمته الأيام ؛ فهو فى هذه الأبيات يخاطب (أولا) هؤلاء الأحلاف ويحذرهم مغبة كتمان الشر مع إظهار الخير ، فلا بد أن تظهر الحقيقة للناس عيانا بيانا ، إن عاجلا فى الدنيا أو آجلا يوم يقوم الناس لرب العالمين فى يوم الحساب ، وسيقع عليهم الانتقام الأليم فى الدنيا والآخرة .

ثم يعرج الشاعر بعد ذلك على وصف الحرب فيصفها تارة بأنها نار قابلة للإضرام والاشتعال تأكل ما يلقى فيها من حرث ونسل ، ويصفها مرة أخرى بأنها رحى تطحن ما يأتى تحتها طحناً شديدا ، ولا تخلف وراءها

---

(١) المفردات . الأحلاف : جمع حليف المرجم : المظنون الذى لا يقين فيه . ضريته : هجته . الثفال : جلد يبسط تحت الرحى عند الطحن . تلقح : من لقحت الناقة إذا ألقحها الفحل . كشافا : كشفت الناقة أى أن تلقح حين تنتج . تتئم : تلد توأمين .

غلمان أشأم : غلمان شؤم . أحمر عاد : هو عاقر الناقة لأن ثمود يقال لها (عاد الأخيرة) كما يقال لقوم هود (عاد الأولى) . القفيز : إسم مكيال

إلا الدمار والفناء والهلاك ، ولا شك فى ذلك فهى تنتج التوائم المشوهة : وترضعهم الوبال وتذيقهم النكال وتفكك الأوصال ، ومن ثم يكونون كأحمر ثمود حين جر الوبال على قومه .

وهذا — كما نرى — وصف رائع للحرب يشد الأسماع ، ويصل للقلب ، ويملك الفؤاد ونرى فيه هول المعركة وجحيمها ووبالها ، وينقل إلينا صورة صادقة ومعبرة للحرب ونتائجها ، ولا يجد المرء منا إلا أن يحنى هامته أمام عظمة هذا الرجل وقوة بيانه وروعة شعره ، ولا ريب فى ذلك يفقد أصاب المحز وبلغ شأو الكمال فى وصف هذه الحروب الطاحنة وما تجره من ويلات وخسائر ، ولا إخال من يسمع هذه الأبيات إلا أن ينفر من الحرب ويجزع من هولها ويتفادى نارها ولهيبها ، وهو بهذا يدعو إلى السلام حيث يعرض الحقيقة العارية المنكرة للحرب والتناحر على الناس جميعا ، ويبينها واضحة جلية ليعتبر من يعتبر ويتعظ من يتعظ .

ثالثا : ذكر الشاعر فى معلقته قصة حصين بن ضمضم (١) — هذا الرجل الذى أظهر الصلح وأخفى عن الناس سريرة كلها شر وغدر وخيانة ، وانتهز فرصة سنحت له فاعتدى على رجل من أعدائه فقتله لما كان يكنه من ألم لقتل أخيه فى بنى عبس ، فجر على قومه النكال والوبال .

وهذه القصة لا يهمنا أن نسردها وإنما يهمنا منها ما جره هذا الغادر على أهله وعشيرته ؛ فلقد أضمر الشر وحده ، وعاد عليه وعلى غيره ... وفى ذلك زهير مصورا أحداث هذه القصة فى جمال خلاب وسحر أخاذ مع قوة فى التصوير وإحكام فى التعبير :

---

(١) هو ابن عم النابغة الذبيانى لأن النابغة هو ابن معاوية بن ضباب بن جابر وحصين بن ضمضم بن ضباب بن جابر (انظر شرح القصائد العشر للتبريزى ص ١١٥) .

لعمرى لنعم الحى جر عليهم ... بما لا يوانيهم حصين بن ضمضم
وكان طوى كشحاً على مستكنة ... فلا هو أبداها ولم يتجمجم
وقال ـ أفضى حاجتى ثم أنتق ... عدوى بألف من ورائى ملجم
فشد ولم تفزع بيوت كثيرة ... لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم
لدى أسد شاكى السلاح مقذف ... له لبد أظفاره لم تقلم
جرىء متى يظلم يعاقب بظلمه ... سريعاً وإلا يبد بالظلم يظلم
رعوا ما رعوا من ظمئهم ثم أوردوا ... غارا تسيل بالرماح وبالدم
فقضوا منايا بينهم ثم أصدروا ... إلى كلا مستوبل متوخم
لعمرك ما جرت عليهم رماحهم ... دم ابن نهيك أو قتيل المثلم
ولا شاركوا فى القتل فى دم نوفل ... ولا وهب منهم ولا ابن المخرم
فكلا أراهم أصبحوا يعقلونه ... صحيحات مال طالعات بمخرم (١)

هذه عاقبة البغى ، وتلك مغبة الغدر والخيانة ، فقد شد هذا الغادر وحده وانتقم لنفسه وثأر لأخيه ، ولكنه أثارها حمية فى النفوس وعصبية هوجاء فى الإقدام على الحروب ووبالها ؛ فقد هب قومه يذودون عنه ، ويقفون معه وقفة المدافع ، وما أدراك ما هذه الوقفة ؛ لقد جرت عليهم النكال والوبال ، فردوا نفوسهم الظامئة إلى الدماء وهم لا يكتفون بورد واحد

---

(١) المفردات : جر عليهم : جنى عليهم . لا يوانيهم : لا يوافقهم . الكشح : الجنب . مستكنة : نية سيئة . يتجمجم : يحجم . ألف ملجم : يريد ألف فالس ألجوا خيولهم . شاكى السلاح : تام السلاح . مقذف : ضخم . اللبد : جمع لبدة وهى ما تلبد على كتفى الأسد من الشعر . الغمار : جمع غمر وهو الماء الكثير . الظمء : المراد المدة بين الحوبين . مستوبل متوخم : مستثقل مرذول يريد أنهم وجدوا عاقبة الحرب وخيمة . يعقلونه : يدفعون ديته ، والعقل : الدية . المخرم : منقطع أنف الجبل والطريق فيه .

بل كلما تعطشت نفوسهم من جديد أوردوها غمار الحرب ، فذاقوا الوبال تلو الوبال ، والدمار تلو الدمار ، وهذه هى النتيجة الحتمية للحروب ، ولولا أولئك النفر الذين تبرعوا بأموالهم ينفقونها رخيصة فى سبيل حقن الدماء وحفظ الأنفس والأرواح لما بقى على ظهر الأرض أحـــد من الفريقين المتخاصمين ... فقد ساق هؤلاء القوم إبلهم وتحملوا ديات القتلى ، وماجرت رماحهم عليهم هذا العمل ، ولا شاركوا فى قتل الأبرياء وغير الأبرياء ، ولكنها الحمية جمية الجاهلية أوقدها هذا الأحمق فجرت على العشيرة كلها حربا لا هوادة فيها واصطلى الجميع بنارها ، وأفنت الأنفس والأموال ، وزهير وهو يذكر هذه القصة المؤثرة ، وهذه الفعلة المنكرة يريد أن ينزع من النفوس هذه الحمية التى مؤداها (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) على فهم الجاهليين لها ، ويبين للناس نتيجة هذه الحمية الجاهلية من سوء عاقبة وعظيم خطر ، ومن ثم يدعو الناس إلى سواء السبيل والأخذ على أيدى القادرين والمخادعين وتجار الحروب ؛ حتى يتحقق السلام وتســـود المحبة والألفة والتسامح .

رابعاً : حث فى معلقته الناس على مكارم الأخـــلاق والتحلى بأشرف الخصال الطيبة والسجايا الكريمة والشمائل الفاضلة الأصيلة بما أورد لهم من حكم سامية وعظات بالغة ... أوردها لتكون مسك الختام بعد طول التجارب وتتابع الأيام وأحداث الزمان ؛ فهى نسج الأحداث ومرآة الدهر وصكة الحياة بما فيها من شقاء وهناء وعز وذل وبؤس ونعيم .

ها نحن أولاء نطرب سوياً حينما نسمعه يشدو . بشعر أرق من الهواء وأسمق من الجوزاء ؛ فهو السحر الحلال والدواء الناجح من الداء العضال فهو يقول .

سئمت تكاليف الحياة . ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم

وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله ... ولكنى عن علم ما فى غد عم
رأيت المنايا ضبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه ... إلى مطمئن البر لا يتجمجم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء يسلم
ومن يجعل المعروف فى غير أهله ... يكن حمده ذما عليه ويندم
ومن يعص أطراف الزجاج فإنه ... يطيع العوالى ركبت كل لهذم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ... ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم (١)

هذه أبيات رائعة غنية عن الكلام والتعليق عليها ، فهى كالبدر المنير يسطع على الكون فيزيل ظلمته ويبدد غياهبه ، ويهدى الحائرين فى متاهات الليل إلى فجر ساطع وإلى أقوم طريق وأحسن سبيل ... وحقاً

---

(١) المفردات : تكاليف الحياة : مشقاتها . لا أبالك : عبارة لا يقصد بها هنا الذم وإنما تجرى مجرى التأكيد . عم : أعمى . العشواء : الناقة التى لا تبصر بالليل . الخبط : ضربها بيديها على غير هدى . المصانعة : المداراة . يضرس : يعض بالأضراس . المنسم : الحافر . يفره : يصونه ويبقيه . لا يتجمجم : لا يتردد . الزجاج : جمع زج وهو أسفل الرمح . والعوالى : جمع عالية وهى أعلاه . اللذم : اللسان الطويل . الذود : الدفع . من لا يظلم يظلم : يريد به أن من طبع الناس أن يبطشوا بالضعيف وأن يظلموا من لا يقدر على الظلم . الخليقة : السجية .

لقد رسم لنا هـذا الرجل مناهج السلوك الخير فى حياتنـا ، وحدد الطريق الأمثل لمعاملة البشر بعضهم لبعض ، وترك للناس شعراً خالداً يجب أن يحتذى على مر الأيام وتتابع العصور ؛ ذلك بما أخرجه لنا من حكم ومواعظ بلغت السماكين علوا وشرفاً ومكانة ، وتغنت بها الركبان ، وصارت درة فريدة على جبين التاريخ والأزمان ، وخير شاهد على ذلك ، وخير شرف يتوج به هذا الرجل العظيم قول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى مناضلته للشعراء « أفضل الشعراء الذى يقول (ومن ومن) » يقصد صاحبنا ، فقال له ابن عباس رضى الله عنهما : يا أمير المؤمنين لم صيرته شاعر الشعراء ؟ فقال عمر : لأنه لا يماطل بين الكلامين (١) ولا يتبع وحش الكلام ولا يمدح أحداً بغير ما فيـه » (٢) .

والذى قصده زهير بن أبى سلمى من إيراد حكمه التى يبثها فى الناس وينشرها بين القوم ، ويذيعها بين أرجاء الجزيرة العربية ... الذى قصده زهير أن الحكمة والموعظة الحسنة من شأنها — فى هذه المواقف وغيرها — أن ترقق الشعور وتبعث فى النفوس الصفاء وحسن المعاملة وجمال المعاشرة فهى تدعو إلى حب الناس والتآخى والتآزر ، وقول الحق والقضاء على الفتن والخلافات ، كما تدعو إلى كثرة البذل والعطاء والتحلى بالأخلاق العالية والشمائل الفاضلة ، وكل هـذه الأهداف والأغراض تدعم السلام وترسى قواعده ، وتقيم عموده ، وتبغض فى نفوس الناس الحرب والتطاحن والتنافر والخصام والصدام وسفك الدماء .

وهذه الحكم السامية تسلك بالناس مسلك التراحم والعطف والتغاضى عن

---

(١) أى لا يردد الكلام فى القافية بمعنى واحد ولا يوالى بعضه فوق بعض .

(٢) انظر طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ص ٢٩ ط صبيح بالقاهرة

المعايب وبذل الخير للناس ، والعمل لخيرى الدنيا والآخرة ؛ لأن الموت يفاجىء الناس ، ولا يترك المرء من حياته إلا الذكرى طيبة كانت أم غير طيبة .

ولا شك أن هذه الوسائل التى سلكها زهير قد تضافرت جميعها لتقريب دعوته إلى قلوب الناس ؛ فكان لها أثر طيب فى نفوسهم الجامحة الملتهبة بنار الحقد والكراهية ، ولقد رأينا كيف اعتمد زهير على جانب المديح الذى أبرز فيه أجمل ما يتصف به هذان السيدان الكريمان ليقتدى الناس بهما ويسيروا على منوالهما ، واعتمد زهير بعد ذلك على قوة تصويره لنار الحرب وإبرازها فى صورة مجسمة منفرة تقشعر لها الأبدان وتطيب من هولها الولدان ، ولا شك أن من يقرأ هذه الطورة وينعم النظر فيها يكره الحرب ويجنح إلى السلم ، ويدعو له ويؤازره بكل ما يملك .

ثم اعتمد زهير على ضرب المثل الحى القائم بين العرب فى قصة (حصين ابن ضمضم) وبين للناس نتيجة الغدر والخيانة ، وفى هذا تأكيد لما يدعو له من السلام والحب والصفاء بين الناس جميعا .

وكان للحكمة دورها الفعال فى الحث على مكارم الأخلاق ونزع الأحقاد ، وتربية النفوس تربية صالحة ، ومن شأن الحكمة أنها ترقق المشاعر والأحاسيس ، وتلين القلوب الجامدة ، وتستحوذ على النفوس الجامحة .

وكان الشاعر موفقا فى هذه النقلات التى سلكها ؛ فهى نقلات منطقية نفسية تتفق مع الطبيعة البشرية المتمردة ؛ فقد استولى الشاعر على مشاعر سامعيه بهذا المديح الصادق الصادر من أعماق نفسه وأغوار وجدانه وشغاف قلبه ، ثم كانت هذه الجرعة القاسية التى حركت النفوس وامتصت حدتها وجبروتها بقوة تأثيرها وتصويرها وشدة وعظها وإرشادها ؛ فكان فيها مرشداً ومعلماً يأخذ بالألباب ، ويستولى على المشاعر والأحاسيس ...

وأخيرا نجد الشاعر حكيما أديبا يفيض على السامعين من تجاربه وعظاته وحكمه ، ومن هنا كان زهير فى هذه المعلقة الخالدة شاعرا مفلقاً لا يشق له غبار بين شعراء الجاهلية ، وتحقق له فيها ما أراد من قوة التصوير وعظيم التأثير ، وكان شعره فى هذا اللون تعبيراً صادقا عن نفسيته ووجدانه وأحاسيسه ومشاعره .

إن أهم شيء يميز زهيرا أخلاقه العالية ونفسه الكبيرة مع سعة صدره وعظيم حلمه ؛ حتى إن قومه قد رفعوا منزلته وجعلوه سيداً عليهم(١) ، ولا عجب فهو من هذه الطبقة المثالية الخلق التى التزمت بمكارم الأخلاق ، وكانت عازفة عن حياة اللهو والمجون ، وعرفت بأنها طبقة عفيفة متوقرة عاقلة يمثلها زهير أو قل أنشأها زهير بن أقرانه من الشعراء فى هذا المجتمع القبلى المضطرب(٢) ، ولا شك أن من يكون بهذه السجايا السامية وهذه الأخلاق الفاضلة يسمو على العصبية القبلية ؛ بل يحارب ما تغلغل فى هذه النفوس الظامئة للحرب والفناء والخراب ، وينزع ما فيها من غل وحقد وكراهية وهمجية وعدوان ، ولحبه لمكارم الأخلاق نراه — دائما — يمدح الأخيار ويشجعهم على فعل الخير ، ويصف ممدوحه بكريم الخلق وأسمى الصفات ، وبعد هذا مما يتحلى به السيد الحجاج المهيب فى قومه ، ونراه دائما يجعل كرم الخلق من مناقب الشرف والسؤدد .

وأمر آخر كان سبباً فى هذا اللون الذى مال إليه زهير ؛ ذلك أنه شهد الحروب الطاحنة التى اهلكت الحرث والنسل خاصة حرب (داحس والغبراء) بين بنى ذبيان الذى ينتمى إليهم أخواله بنو عبس ، وقد دامت تلك الحرب

---

(١) انظر تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ٩٨/١ ط الهلال القاهرة ١٩٦٧ .

(٢) انظر كتاب (زهير بن أبى سلمى) للدكتور / عبد الحميد سند الجندى ص ١٣٤ ط دار القومية العربية للطباعة بالقاهرة .

أربعين سنة كما تذكر المصادر القديمة ، وقد كانت الحرب عامل شقاق وثأر وتناحر تترك وراءها الويلات ولا تنتهى إلى سلم حيث كان الثار يولد الثأر والقتل يبعث على القتل ، وحلقات الدماء لا ينضب لها معين ، ولا شك أن هذه الأحداث الجلى قد ولدت لديه ميلا إلى التفكير فى أفعال قومه ، ونزوعهم إلى الجهل والعنف لحل مشكلاتهم (١) فلجأوا إلى نزع الحقد من من قلوبهم مرة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومرة بتصوير الحروب وبشاعتها والتنفير منها ومدح الساعين لأى بادرة من بوادر السلام .

وأمر ثالث هو البيئة التى عاش فيها زهير بن أبى سلمى ؛ فقد نشأ فى بيئة هيأته هذه التهيئة ، وكان لأستاذيه العظيمين وقريبيه الكريمين أوس بن حجر وبشامة بن الغدير أثر عظيم فى تنمية هذا الاتجاه عنده ، وهما اللذان عركا الدهر وحلبا أشطره ، وكان أولهما كثير التحدث فى مكارم الأخلاق ، وكان ثانيهما معروفا بصدق النظر وطول التجربة واستصفاء الرأى المسدد والمشورة الصائبة(١) ولهذا كان شعر زهير يتسم بالحكمة ، ويضع للناس فيه قواعد المعاشرة والمعاملة ، ويريهم فضيلة الخلق الكريم وعزة النفس وعمل الخير ، والتحلى بمكارم الأخلاق .

ولهذا فلا غرابة إذن أن يكون زهير داعية للسلام ؛ فهذا الأمر قريب إلى ما طبع عليه من كرم الخلق وصفاء الطبع وطول التجربة والانتفاع بحوادث الأيام ، وصدق النظر فى عواقب الأمور التى اكتسبها على مر الأيام ، وكان للبيئة أثر واضح فيها .

---

(١) انظر : نماذج فى النقد الأدبى لإيليا حاوى ص ٢٠٨ ط دار الكتاب اللبنانى ببيروت .

(٢) انظر كتاب (زهير بن أبى سلمى) للدكتور عبد الحميد سند الجندى ص ٢٥٠ .

والعاطفة الشعرية عند زهير فى هذا اللون من شعره قوية صادقة ، فهى تعبر عن وجدان صاحبها أعظم تعبير ، وتصور ما تكنه نفسه من حب للخير والتسامح وكراهية للغدر والشر ، وما جاء فى المعلقة صورة صادقة لبعض مظاهر الحياة فى العصر الجاهلى بما يتخللها من حروب وصراع وويلات ، ومن مآثر خالدة لبعض كبار النفوس ، كما أنها تعرض لنا شخصية زهير بما امتاز به من عقل وحكمة وحب للسلام ونزعة إلى التدين ، وما اشتهر به من ضرب الأمثال ونقد المجتمع والتعريف بشىء من أحواله ، ويتضح فيها أثر البيئة الجاهلية من اختيار الصور والأخيلة الناطقة بالحياة النابضة بالحركة ، إذ يكاد القارىء يرى هذه الصور ماثلة أمامه فى كثير من الجمال ودقة التصوير كما يتضح فيها خصائص أسلوب شاعرنا من جزالة اللفظ ومتانة التركيب ونقاء العبارة وبعدها عن التعقيد والإغراب ، مع وضوح معانيه وبعدها عن الإسفاف والابتذال (١)

وختاما يجدر بنا أن نقول بعد أن عرضنا لشعر زهير من خلال معلقته الرائعة ولمسنا الجوانب الإنسانية فيها : إن زهير بن أبى سلمى شاعر إنسان يعمل من أجل خير الناس وإسعادهم فهو بحق شاعر السلام فى العصر الجاهلى وصوت الفضيلة ورائد الحق ونصير الخير وداعية الخلق الكريم ؟

دكتور / على محمد على طلب
مدرس بقسم الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط

---

(١) انظر : من النصوص الأدبية فى الجاهلية والإسلام للأستاذ الدكتور مصطفى محمود يونس ص ٢٣ ط الفجر الجديد القاهرة ١٩٨٢